تقديس الجبل في بلاد المغرب القديم

حفيظة لعياضي
جامعة محمد بوضياف – المسيلة
Laiadhihafidha@yahoo.fr

تاريخ الإرسال:2019/11/16؛ تاريخ القبول: 2020/10/14

Sanctification of the mountain in the ancient Maghreb

Hafidha Laiadhi

Abstract: If the mountains and caves were the first natural worship in the ancient Maghreb, as reflected by some of the archaeological sources of rock inscriptions, as well as classical literary texts as mentioned in the ancient Blenos, Pomponius Mila and St. Augustine, we want to address the problem of the sanctification of the ancient Maghreb For the mountain? As manifestations of this? And the extent of the continuity of this sanctification in the region coincided with the foreign religious influences that came to the country with the Phoenicians or the Romans ?. This topic aims to know the extent to which the inhabitants of the ancient Maghreb were connected to the mountain and to resorting to it in times of peace and war to the end of the old age in the region, by recognizing the meaning of the sacred to the inhabitants of the Maghreb and the manifestations of the sanctification of the mountain and the rituals related thereto, and then the continuity of this sanctification in several regions of this country.

Keywords: The mountain; Ancient Maghreb; Sanctification; God's dwelling; Ritual worship

الملخص:

إذا كانت الجبال والكهوف قد مثلت المقدس الطبيعي الأول ببلاد المغرب القديم، مثلما عكسته بعض المصادر الأثرية المتمثلة في النقوش الصخرية، وكذا النصوص الأدبية الكلاسيكية مثلما ورد عند بلينوس الكبير وبومبونيوس ميلا والقديس أوغسطين، فإننا نريد من خلال هذا الموضوع معرفة أسباب تقديس الانسان المغاربي القديم للجبل ومظاهر ذلك، ثم مدى استمرارية هذا التقديس في المنطقة تزامنا مع تأثيرات دينية أجنبية وفدت إلى البلاد مع الفينيقيين أو الرومان. وحيث أن هذا الموضوع يهدف إلى معرفة مدى ارتباط ساكنة بلاد المغرب القديم بالجبل واللجوء اليه في أوقات السلم والحرب إلى نهاية العصر القديم بالمنطقة، من خلال التعرف على معنى المقدس لدى ساكنة بلاد المغرب ومظاهر تقديس الجبل والطقوس المتعلقة بذلك، ومن ثم استمرارية هذا التقديس في عدة مناطق من أرجاء هذه البلاد.

الكلمات المفتاحية: الجبل؛ بلاد المغرب القديم؛ التقديس؛ مساكن الالهة؛ الطقوس التعبدية

مقدمة:

قدس المغاربة منذ فجر التاريخ وربما أواخر ما قبل التاريخ، الظواهر الطبيعية في أول الأمر وعلى رأسها الجبال، الصخور والمغارات. هذا ما عكسته لنا بعض الشواهد الأثرية، وكذا اشارات النصوص القديمة. وسنعالج في هذا الموضوع إشكالية لماذا قدّس المغاربة القدماء الجبل؟ وما مظاهر ذلك؟ وهل كانت هناك طقوس متعلقة بهذا المقدس الطبيعي؟ ثم

إلى أي مدى استمر تقديس الجبل في المعتقد المغاربي تزامنا مع التأثيرات الأجنبية الوافدة للمنطقة، كالفينيقيين أو الرومان، أو العرب المسلمين؟

مفهوم المقدس عند المغاربة:

قبل أن نعرف السر وراء تقديس الانسان المغاربي القديم لهذا المظهر الطبيعي، وهو الجبل، فإنه يحق لنا معرفة معنى المقدس لدى الشعوب القديمة عموما، وعند المغاربة خصوصا. فاهتمام الانسان أو قلقه في أول الأمر اتجاه شيء مقدس جعل ممارساته ترتبط إما بظواهر طبيعية أو باهتمامات زراعية. فكل ما هو موجود بالطبيعة ظهر للإنسان القديم تحت شكل غريب كفاية ليشد انتباهه، ويصبح ظاهرة مباشرة أو غير مباشرة للمقدس (Bénabou Marcel, 1976 : 269). لذلك عرّفتنا الاثنوجرافية بشكل بدائي للإحساس الديني الذي نجده عند كل الشعوب القديمة، وهو إحساس التقديس، حيث أن الشيء المقدس عبارة عن طاقة فوق البشر وفوق الطبيعة، بحيث يكون للإنسان وعي في ظروفه المتعددة، إما وعي بوجود ظواهر طبيعية، أو وعي أمام حيوانات لها خصائص لافتة للنظر، أو وعي على مستوى المخطط الاجتماعي من خلال شعائر أو طقوس احتفالية في الحرب مثلا، أو عند الصيد، والتي تستحضر إثارة جماعية ويحقق بعض الأفراد من خلالها مفاخر كبرى، حتى أنهم يصبحون هم المقدس. فهذه الطاقة هي قوة واضحة وصافية بإمكانها أن تكون ايجابية أو سلبية. والانسان المغاربي القديم اعتبر هذه الطاقة (المقدس) كشخصية أو روح، مثلما تشير الكثير من النصوص والمعالم في العصر القديم بأنه يتم إقامة طقس أو شعيرة في كل مكان إلى الأرواح:

أرواح الموتى، المياه أو الأشجار، فهذا الأمر يتعلق بتطور أولي للإحساس بالمقدس الذي يشخصه، لكنه يترك له خاصية واسعة أقل عظمة من الخاصية الممنوحة للإله(Picard Gilbert-Charles,1954: 4)

إذ نجد في التصورات السحرية والدينية للمغاربة القدماء خليطا غير متجانس من الظواهر الطبيعية المقدسة، وأرواح لا أسماء لها، وكيانات تدخل ضمن الالهة المتفردة وهذه التصورات وليدة حالات من التبصر والخشية والتوقير الذي يؤدي إلى تقديس أقل ما يقال عنها أنه تقديس منظم. فقد كان للإنسان المغاربي القديم مثل بقية الشعوب البدائية، وعي بقوة موزعة في الطبيعة يمكنها أن تظهر نفسها في أي وقت، في حادثة طبيعية، أو في ظاهرة غير مألوفة، ولكن المقدس يمكن أن يشمل حتى الحيوان دون أن يصبح هذا الحيوان مقدَسًا جديدا بالضرورة، كما يمكن أن يظهر المقدس في شخص دون حاجة إلى وسيط عن طريق الوهم و الرؤيا أو الوحي بدرجات متفاوتة(Camps Gabriel, 2007: 201) .

وإن من أكثر مظاهر المقدس الملموسة وأكثرها انتشارا في العالم التي ٱحتفظ بذكرها، هي ما يمكن تسميته بالحدث الطبوغرافي، وأولها الجبل وحتى الصخر (عقون محمد العربي، 2008: 235)، إذ تمثل الجبال إلى جانب الكهوف المقدس الطبيعي الأول ببلاد المغرب القديم (حارش محمد الهادي، 1992: 148 ؛ غانم محمد الصغير، 2005: 68). ذلك أن حوادث الأرض، من جبال ومغارات وصخور كانت قد روقبت من طرف المغاربة القدماء، وإن لم يكن كآلهة، فعلى الأقل كمأوى لمخلوق إلاهي يحوز هذه الدرجة (Basset Renet, 2012: 27). فالمصادر المتعددة والمتعلقة

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 77 - 97

بالسحر التي كانوا يخشونها من الحجارة ومن القرابين التي يجعلونها لها، تعيش في كل مكان، خاصة تحت الأرض وفي الكهوف، وفي الأماكن المرتفعة، في الأشجار، في العواصف، في المنابع وفي الأنهار. وفي الغالب يبدو أن الشعيرة التي يقيمونها لهذه الظواهر الطبيعية تبدو أنها لا تكوّن بشكل نهائي سوى شعيرة أو طقس راجع إلى الأرواح(Basset Henri, 1921: 360).

وإذا بحثنا في الأسباب التي جعلت المغاربة القدماء يقدسون الجبل أول الأمر، نجد أن هذا التبجيل راجع إلى نظرتهم لها على أنها مساكن الآلهة، وأن شكلها هو الذي يجلب اليها القداسة، أو قد يذكّر ارتفاعها الانسان بالسماء، مقر كل اله قوي (غانم محمد الصغير، 2005: 68). ويذكر القديس أوغسطين بأنه يتم ارتقاء الجبال لأداء العبادات لأن ذلك يعني لدى العبّاد بأنهم أقرب إلى الله (Saint Augustin, XLV, 7)، إذ كان هذا الأخير مرغما على مهاجمة مسيحيي افريقيا الذين اعتقدوا بأنهم مضطرين إلى تسلق القمم أو النزول تحت الأرض ليتمكنوا من سماع الله بشكل جيد(Bénabou Marcel, 1976: 269) ، ووجه اللوم لهم لعدم تخلصهم من التقاليد الراسخة في أذهانهم عن الجبال وأنها قريبة من الله (عقون محمد العربي، 2008: 235).

ومن الاشارات التي نجدها في النصوص الأدبية القديمة حول تقديس الجبل، ما ورد عن جبل أطلس سواء عند المؤرخين الذين حددوه بالجهة الشرقية من ليبيا القارة ككل، مثلما فعل هيرودوت، حيث أن أطلس عنده:﴿ ذو شكل رقيق دائري، يقال أنه يبلغ من العلو حدا لا ترى معه

العين ذراه لأن السحاب يغطيها دائما شتاء وصيفا، ويسميه أهل البلاد ﴿عامود السماء﴾، وقد اكتسب هؤلاء الناس اسمهم (أطلنتس) من هذا الجبل (هيرودوت. IV. 184). ولكن أطلس (أنظر التعليق رقم 1)الذي يتحدث عنه هيرودوت هنا موجود بعد بلاد الغرامنت، أي في الشريط الذي يلي صحراء ليبيا الحالية، وهو ربما يوافق ما قاله بروكوب فيما بعد عندما أشار إلى أنه:﴿... يوجد في نوميديا جبل لا مثيل له في بقية العالم، إنه مرتفع جدا وصلب، واسع لدرجة أنه لا يمكننا أن نقوم بدورة حوله في أقل من ثلاثة أيام﴾(Procope. VI. VII). حيث نلمس في كلامه شدة دهشته من هذا المرتفع، وربما ذلك راجع لكونه مهابا من طرف ساكنته. كما أن كلام هيرودوت وبروكوب، على الأقل حول موقع هذا الجبل بالجهة الشرقية من بلاد المغرب القديم، يتوافق مع ما ورد عند بومبونيوس ميلا كذلك حينما أشار إلى وجوده في عمق صحراء ليبيا قائلا:﴿... وفي منتصف الرمال يرتفع الأطلس، كتلة جبلية حادة لا يمكن اختراقها وتتناقص كلما ارتفعت، ولارتفاعه فإن قمته تختفي عن الأنظار وتضيع في السحب، وما قيل أنه ليس فقط يلمس النجوم، ولكن أطلس يحمل السماء﴾(Pomponius Méla. III.10).

وهناك من المؤرخين القدماء من حدد موقع أطلس مقابل أعمدة هرقل، ولكنه يجسد في وصفه له النظرة التقديسية، وهو بلينوس الكبير بقوله:﴿ فوسط الرمال يرتفع نحو السماء جبل أطلس﴾.﴿ كل شيء يحفظ الصمت العميق، على غرار الصمت الرهيب للصحاري﴾. ﴿إن خوفا دينيا يستولي على القلوب حين تقترب، خاصة من هيئة هذه القمة

الشاهقة التي تعلو السحب والتي تبدو قريبة من الدورة القمرية﴾(Pline l'Ancien. V. 6). هذه المعطيات مثبتة من طرف ماكسيم الصوري الذي يشير إلى أن جبل أطلس مقدس لدى المغاربة: ﴿ يقطن الليبيون الغربيون مكانا ضيقا﴾.﴿ الأطلس هو إله هذا الشعب﴾(Maxime de Tyr. VIII.7) .كما أن سيليوس ايتاليكوس يجسد أطلس وكأنه اله وهو يبرز الطابع الأسطوري فيصفه لهذا الجبل:﴿... فصل هرقل ليبيا عن أوربا المجاورة بواسطة المضيق، ونكتشف بها ارتفاعات، فرأس الأطلس المتوجه نحو السحب يدعم النجوم، ويحمل كتلة العالم للأبد، لحيته مليئة بالجليد، على جبهته ينتشر ليل مخيف بتأثير من الصنوبر الذي يكسوه، والرياح المستعرة تجتاح أصداغه، ومن فمه العاصف تهرب أنهار شرسة﴾(Silius Italicus. I) . فهذا الأطلس المعني في الأساطير، والذي حفظ لنا سترابون (Strabon. XVII. II. 2) كذلك وصولينوس(Solin. XXV) اسمه الأصلي، وهو ديريسDyris وأدّيريسAddiris ، هي جبال الأطلس المغربي بكل تأكيد (Basset Renet, 2012: 29). ومهما اختلف تحديد موقع جبال الأطلس بشرق أو بغرب بلاد المغرب القديم في كتابات هؤلاء المؤرخين، فإن الصفة الغالبة في وصفهم له هي الخشية، وهي انعكاس لتقديس ساكنة ذلك الوقت لهذا الجبل.

مظاهر تقديس الجبل عند المغاربة القدماء:

توجد عدة معالم قديمة تدل على العمق الليبي القديم الذي يميز تقديس الأماكن المرتفعة، مثل الرسوم الصخرية ذات الدلالات الدينية. وقد أصبحت هذه الرسوم معروفة جيدا الآن، حيث يرجع تاريخها إلى

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 77 - 97

النيوليتي، ولكن أغلبها يعود إلى العهد البرونزي وبداية عصر الحديد، ولاتزال تقام لها إلى الآن زيارات –اكتست طابعا اسلاميا– مما يدل على أنها مازالت تحافظ على عمقها الديني في ذاكرة الشعب (عقون محمد العربي، 2008: 235)، مثلما هو الحال مع رسوم جبال رحات (Rahat)، وياغور (Yagor) بالأطلس الأعلى (غانم محمد الصغير، 2005: 68)، أو كهف الأروية بالشيفية الواقعة على بعد 2 كلم عن (Blandan) (بوثلجة حاليا)، ففي جدران كهف صغير توجد رسومات ملونة بالمغرة الحمراء تمثل حيوانا من فصيلة الضأن، اعتبره المصنفون من الأروية بالنظر إلى قرونه، وعلى العموم تختلف أشكال هذا الموقع كثيرا عن الفن الصخري المغربي والصحراوي الذي نكتشف فيه دائما النزعة إلى الطبيعة باستثناء بعض الجوانب ذات المحتوى السحري أو الديني (كامبس غابريال، 2010: 85).

1–نقش اعزيب نقيس (جبال الأطلس الأعلى المغربي) (محمد البشير شنيتي، 2013: ص 102)

اضافة إلى الرسوم الصخرية، نجد تقديس الجبل يتجسد في مظهر الاعتقاد بالجن الذي كان معششا حسب جوليان في العقلية البربرية (جوليان شارل أندري، 1969: 78)، حيث أن الاعتقاد به كان منتشرا في كل مكان من بلاد المغرب القديم، وهو اعتقاد غير مخالف للإسلام، وإن كان

ليس هو الذي أدخل الجن إلى هذه المنطقة. هذه الجن كثيرة و لا يحصى عددها، لكنها تبقى مجهولة و لا جسمية، وهي حبيسة في غلاف بالغ الدقة حتى أن الأعين البشرية لا تراه، وهي تسكن من دون تمييز داخل الأرض، وبالسلاسل الجبلية خصوصا، ولكنها تفضل مغادرتها بالليل، عبر الممرات التي تعرض لها بالمغارات ومنابع المياه والأشجار (غزال ستيفان، 2007: 119)، مثلما أوضح بلينوس الكبير ذلك في قوله: ﴿ أما في الليل فالأطلس يضيئ بألف نار، ويمتلئ بالمرح وبأصوات الطبول وباللهب﴾ (Pline l'Ancien.V. 6) ، وقد فسر بعضهم ذلك بأنه يمثل خروج الجن خلال الليل في جلبة وضجيج (غانم. م. 2005. 69). ومن جهته، تحدث بومبونيوس ميلا عن هذا الجن الذي يظهر ليس فقط في الأطلس، بل في المنطقة التي تحيط بالساحل الجنوبي للقارة الافريقية، إلا أن ستيفان غزال لا يرى فيما ذكره بلينوس القديم وبومبونيوس ميلا سوى صدى تحريف للروايات القديمة التي يقدمها الأهالي، وأن الكتابة التي اعتمد عليها لم تأخذ تلك الرواية إلا من نص رحلة حانون التي تغلب عليها الأدبيات الوصفية إلى درجة التهويل في غالب الأحيان. ومن الأمثلة التي توضح لنا هذا الاعتقاد بالجن لدى ساكنة بلاد المغرب القديم، أن بعض هذا الجن قد برز مع الزمن، فأصبحت لها سمة واضحة ومقر ثابت. فأحيانا هي الأغوال، أي الكائنات المرعبة التي لها عدة أساطير لدى المغاربة، والتي لم يجهلها آباؤهم قبلهم، وأحيانا هي قوات محسنة، بحيث أن مجموعة بشرية قد تحس بالحاجة إلى أن يكون بجانبهم وعلى أرضهم حام أو عدد من الحماة الذين يعرفونهم بشكل

جيد، والذين استطاعوا الاقتراب منهم دون عناء، فنصبوا واحدا من هذه الكائنات (الحامية) المقدسة حيثما اعتاد الناس الاتصال بالجن، سواء في نبع الماء، وفي المغارة وفي الشجرة بالجبل، فأصبح لذلك المكان سيدا أو جنًا، وبذلك انتشر تقديس الآلهة المحلية. وقد عثر في بعض الجبال على نقوش باللغة اللاتينية مهداة إلى جن هذه المواقع، وليس من الأكيد حسب غزال أنها كانت آلهة افريقية، لأن الرومان في ذلك العهد كان كل مكان بالنسبة لهم له جن، ولكن يحتمل أن هذه الجن غالبا ما تختلط بروح أهلي(غزال ستيفان، 2007: 120، 121)، إذ يذهب البعض – على غرار باسي (R. Basset)– إلى الاعتقاد بكون ذلك تحت تأثير أجنبي، مثلما يعكسه النقش الذي يحوي أبيات لاتينية معثور عليها بـ نارناكارا (سيدي يوسف)، حيث ذكر الريح تحت اسم ﴿جن﴾، وربما أن هذا الاعتقاد يلزم كذلك ارجاع نقش معثور عليه بـ ﴿عين مترشو﴾ ويربطه بمقطع لـ فيرمنوس ماتيرنوس الذي يرى أن الآشوريين، وجزء من ساكنة افريقيا منحوا الريح نوعا من السلطة على العناصر(Basset Renet, 2012 : 37) .

وإلى جانب مظاهر الرسوم الصخرية والجن التي تعكس تقديس المغاربة القدماء للجبل، نجد ما يجسد ذلك التقديس في التعبد داخل المغارات بالأماكن العالية (جوليان شارل أندري، 1969: 78)، لأن انغراز المغارة في جوف الأرض يسمح بالاتصال بآلهة العالم السفلي وحتى مع آلهة العالم العلوي، ذلك أن بعض معاصري القديس أوغسطين يعتقدون بقربهم من الاله عند توغلهم في أماكن تحت الأرض، كالسراديب

والمغارات (عقون محمد العربي، 2008: 237). فقد عبد الافارقة القدماء آلهة مقرها المغارات، ولا نعرف من أسماء هذه الألهة سوى اسم اله واحد هو باكاكس Baccax في جبل طاية قرب عنونة (Thibilis). ففي سفح الجبل تنفتح مغارة تسمى محليا: غار الجماعة، وكان ﴿الماغستري-باغي﴾ (Magistri-Pagi) وهما قاضيان بلديان يذهبان إلى المغارة للقيام بزيارة تعبدية في فصل الربيع من كل سنة، وبعد تقديمهما للقربان يقومان بنقش نص اهدائي إلى الاله باكاكس العظيم (Baccax Auguste)، وقد جاءت آثار تقديس مشابهة في مغارة صخرية بجبل شطابة بالقرب من قلعة فوة (castellum Fuensieum) في قسنطينة كانت مقر اله، نقشت له عدة نصوص اهدائية يشار اليه في بدايتهما بعبارات مختصرة أولها G. D. A. (Camps Gabriel, 2007 : 204) أو لربما أن اسم هذا الاله هو ﴿كدابا﴾ Giddaba كما ذكره القديس أوغسطين(Augustin. S. XLV. 7) ، وكذلك يفرو Ifru الذي رسمت صورته مع كتابة لاتينية على الصخر بشرق قسنطينة. ويبدو أن هذا الاسم لابد من مقابلته باللفظ البربريIfri الذي يعني المغارة. وتوجد كهوف في أمكنة أخرى يبدو أنها كانت أماكن مقدسة مكرسة لمعبودات مجهولة، ويزورها المغاربة في أوقات نجهلها. ففي Ifira (إفيرا) بمنطقة القبائل توجد مغارة جدرانها مليئة بالكتابات الليبية، وفي كهف الخرّاز Kef el-Kherraz (بين قالمة وعين البيضاء) مغارة فيها علامات منقوشة وملونة بالأحمر على مدخلها (غزال ستيفان، 2007: 123)، أو بعض الرسوم المنقوشة على مداخل عدة مغارات المنتشرة في التاسيلي أو في الأهقار.

2- رسوم صخرية لكتابات ليبية بربرية (مغارة جرف أمود، التاسيلي نزجر، صورة أُخذت من طرف الباحث)

اضافة إلى هذه النقوش المشيرة إلى تقديس اله بالمغارات، نجد في مقابر فجر التاريخ ببلاد المغرب القديم دليلا آخر على تقديس ساكنته لقمم الجبال واختيارها لتكون قبورا لموتاهم، فقد كانوا مهتمين بقبور موتاهم أكثر من اهتمامهم بمساكنهم، وفي غياب أي أثر لمساكنهم يمكن التأكيد على أنهم كانوا يدفنون موتاهم في قمم الجبال المجاورة، حيث لاتزال معالمهم الجنائزية. وقد عرّفت بعض الدراسات الأثرية بقبور جبل مستيري الدائرية، وليس غريبا أن تكون هذه المعالم بعيدة شيئا ما عن أماكن السكن حسب كامبس، فذلك يعد قاعدة تقريبا في الجزائر، حيث أن أهم مقابر فجر التاريخ معزولة بدليل أنه لا أثر لأي سكن بالقرب من مقابر الركنية وبونوارة بالشرق الجزائري، وكذا مقابر الجلفة وبني مسوس (كامبس غابريال، 2010: 92) على سبيل المثال.

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 77 - 97

3-مقبرة الركنية (قالمة)، موقع: ar.wikipedia.org

4-مقبرة بونوارة (قالمة)، موقع: cartes.patrimoineculturealgerien.com

كما أن ما يؤكد هذا الاختيار لقمم الجبال للتعبد، إقامة معابد في فترات لاحقة بها، مثل المعابد ذات التقاليد البونية، مثل معبد ساتورن في أعلى جبل بوقرنين الذي يطل على خليج قرطاجة، مما يؤدي إلى التفكير بأن هذه المعابد مكرسة للإله أمون الليبي أو ساتورن، والمقامة في الأماكن العالية ذات تقليد بربري قديم وراسخ، وتجسد مكانة الجبل في حياة البربر قديما وحديثا (عقون محمد العربي، 2008: 235).

الطقوس المتعلقة بتقديس الجبال:

احتلت الالهة عموما والطقوس المتعلقة بها مكانة بارزة لدى المغاربة خلال العصر القديم. فقد انعكس الامتزاج الحميمي للحياة الروحية والمادية، إذ أن الاتصال الوثيق بين مظاهر الروح والمادة هو الذي يميز النشاط البشري، وهذا ما نلمسه في شعيرة تقديم الأضاحي التي ترجع إلى الاهتمام الكبير لممارس هذه الشعيرة. فمن جهة تجعل المخلص على

اتصال مع آلهته، ومن جهة أخرى تضمن خصوبة الحقول او العائلة أو القطعان، أي حياة الجماعة والفرد، وتقديم الأضحية هو عطاء وضمان في نفس الوقت لبقاء النعم (Leglay Marcel, 1966: 157).

إذ لاتزال بعض الشعائر المرتبطة بملامح تضاريس الطبيعة شائعة وحية في افريقيا الشمالية، وقليلة هي الأغوار والسراديب التي لم تتحول إلى أماكن تقديس، ولو متواضعة مثل المزارة والحويطة، التي توضع فيها النذور والقرابين المتمثلة في: آنية فخارية، مصابيح، صرر، حصى أملس، أو قلل، لأن هذه الأغوار تمر عبرها الجن، أو الأرواح الحارسة التي ينبغي نيل عطفها، أو على الأقل تحييدها (عقون محمد العربي، 2008: 238). ويحسن بالمكان الذي يتصل فيه العبّاد بالمقدس أن يكون منعزلا انعزالا واضحا عن عالم البشر. ففي بلاد المغرب نجد في كل جهة أسوار دائرية أو مربعة الشكل، مكوّنة من الحجر الجاف أو بالبناء، وتحيط بمواقع ضيقة غير مسقوفة (غزال ستيفان، 2007: 144) تسمى مزارة، نجدها بالجبل، قرب الشجر أو قرب منبع، أو تحت الأرض. وهي حجارة تشكل حظيرة تقريبية، حيث تتراكم في الوسط قرابين بسيطة مثل قماش معقود، فخار، مصابيح، ويتم صب الزيت، وأحيانا ذبح الدجاج. فهذه الأماكن المقدسة تنتشر في كل العالم المتوسطي، فهي تبرز المكان الذي يظهر فيه المقدس بطريقة معينة (Picard Gilbert-Charles, 1954 : 4).

كما أننا نلمس طقوس تقديس قمم الجبال والصخور التي تتبع طبيعيا الجبال، عند الغوانش (les Guanches)، وهم بربر جزر الكناري الذين لم يتمسّحوا ولم يصلهم الاسلام، لذلك احتفظوا بالمعتقدات الأصلية

للأفارقة القدماء، ومن تلك المعتقدات تكونت لديهم ديانة أصيلة أعطت اسما لإله نقله الاسباني غالليندو (Galindo) دون تمحيص بهذه الصيغة: آت قوايش أفونت أمان Atguaychafuntaman، وحسب هذا الاسباني، فإن الصيغة تعني : ارفع السماء، وهو نفس الاسم الذي تحمله قمة تينيريف (Ténérife) في كناريا الكبرى(Camps Gabriel, 2007 : 203).

كما توجد صخرتان بجزر الكناري: الأولى تسمى تيسمار(Tismar) في مقاطعة غالدار، والأخرى تسمى فيمينيا (Vimenya)في تيلد. وفي أوقات الضرورة أو الأزمات يقوم السكان رفقة متدينات تسمى ماغاد بزيارات تعبدية لهاتين الصخرتين، ماسكين بأيديهم جريد النخل وأواني مليئة بالحليب والزبدة لسكبها على الصخرتين وهو يرقصون حولهما ويرددون أناشيد جنائزية عبارة عن أغاني حزينة، يسميها الاسبان ايندیشاس، ومن هناك يقصدون شاطئ البحر ويضربون الماء بعصيهم بقوة مصدرين صرخات عالية. كما أن هناك طقس آخر لدى سكان الكناري كذلك، قريبا من فوهة الكالديرا بـ بالما، حيث يوجد له هيئة مسلة وتنادى اذاف. ولتفادي انهياره، فإن سكان قبيلة تنانسو الذين يستقرون في الضواحي، يقدمون في موكب وبأهازيج أحشاء الحيوانات التي يستهلكونها، وأحيانا أضاحي كاملة يتم إلقاؤها من أعالي الجبال القريبة(Basset Renet, 2012 : 32, 33) .

حفيظة لعياضي
Laiadhihafidha@yahoo.fr

استمرارية تقديس الجبل في بلاد المغرب القديم:

استنادا إلى الأدلة السابقة المتمثلة في مظاهر تقديس الجبال والشعائر المتعلقة بها، وكذا النقوش التي تعود إلى الفترة الرومانية والتي تشير إلى ﴿جن الجبل﴾ واختيار قمم الجبال لإقامة الطقوس الجنائزية وطقوس المطر، علينا القول أن الأماكن المرتفعة يرتبط تقديسها بشمال افريقيا قبل قدوم الفينيقيين (غانم محمد الصغير، 2005: 69)، أواخر النيوليتي (يبدأ النيوليتي بشمال افريقيا منذ حوالي 6000- 3000 سنة قبل الميلاد) وفجر التاريخ (حوالي 3000-1500 سنة قبل الميلاد).

فتقديس قمم الجبال ظاهرة متأصلة في المعتقدات المغاربية منذ هذه الفترة، لأنها نقطة التقاء السماء بالأرض، حيث يلاحظ ذلك اللقاء خلال تشكل الضباب، وهي بمثابة الزقورة التي أقامها العراق في بيئة ليس فيها جبال، واستمرت قدسيتها في ظل الاسلام، وأصبحت مسكن الأولياء. ومن أمثلة ذلك في الجزائر مثلا نجده في الجبل المطل على قرارم وسد بني هارون، وهو مسيد (مسجد) عيشة التي قد تكون امرأة صالحة، والجبل المطل على القل هو سيدي عاشور، والجبل المطل على أم البواقي هو سيدي رغيس، أما الجبلان المطلان على باتنة فهما: إيشّ علي (أي قمة الولي علي) وإيشّ لعْلى (قمة الولي الأعلى) (عقون محمد العربي، 2008: 236).

كما أن الجبل إلى الآن مكان لعقائد مبهمة، ولا يزال الاعتقاد بأن بعض الجبال مسكونة بالجن، ولا يمكن للبشر أن يسكنها، وهذا الاعتقاد لا يزال راسخا عند التوارق متجسدا في ﴿قرعة الجنون﴾ (Garaet

ledjnoun) (عقون محمد العربي، 2005: 237) (أنظر التعليق رقم 2) وكذلك في الآير(Camps Gabriel, 2007 : 203) . حيث أن بعض الجبال تثير عند التوارق رهبة دينية، وليس المظهر الرهيب للجبل هو ما يوحي لهم بالفزع، وإنما الملكات اللواتي تقمن فيه (الجن). هذا الاعتقاد الذي يوجد منذ فترة بلينوس الكبير وهو ينقل مقطعا من رحلة حنون –كما أشرنا اليها–، التي وضع فيها الأجيبان والساتير (الجن)، يحيل عليها المسافر القرطاجي أكثر في الجنوب، وهو ما تم نقله من طرف صولينوس، كما أنه في القرن الثاني عشر للميلاد، يشير مؤرخ عربي مجهول إلى أشياء مشابهة في جبل بالصحراء، لكن سرده ينقل ظاهريا أثر الاعتقادات الاسلامية، ويتعلق المر بجبل فلفل الذي تستقر فيه آثار عدد من المدن المهجورة بسبب الملكات اللواتي خلال الليل نلمح نارهن ونسمع صفيرهن مع أغانيهن. كما أنه في نفس السياق، نجد أزقر Azgr عند التوارق، صخر ادينن على مسافة 30 كم شمال غات، هو موضوع تطير عنيف، بحيث ينعدم من يتجرأ على ولوجه. وعند الأهقار نجد نفس الأمر يقع عند مرتفع أودان، والاسم الممنوح للكائنات الغريبة التي تأهله، وهي ألهينن (الجن)، وكذا نجد ﴿الكديا﴾ شمال تمنراست وغرب إلمان تثير بدورها شكًا من هذا القبيل (Basset Renet, 2012 : 31) .

5-جبال الأهقار تمنراست، (موقع: alalamtv.net)

الخاتمة:

من خلال ما سبق في هذا البحث يمكننا القول بوعي الانسان المغاربي القديم بوجود شيء مقدس متمثل في مظهر طبيعي أو حيواني أو حدث على مستوى حياته الاجتماعية. وقد مثلت الجبال والصخور المقدس الطبيعي الأول لهذا الانسان باعتبارها مأوى لمخلوق الاهي يحوز درجة التقديس، وهو ما ترجمته الطقوس والشعائر التي خصصها الانسان القديم لذلك.

إن سبب هذا التقديس للجبال هو نظرة الانسان اليها على أنها مساكن للآلهة، باعتبار شكلها أو ارتفاعها الذي يذكّر الانسان بالسماء مقر لإله قوي، وهو ما عكسته إشارات النصوص القديمة، سواء بصفة غير مباشرة تمثلت في التنويه بعظمة جبل أطلس، وهو ما نجده عند هيرودوت، بومبونيوس ميلا أو بروكوب حول مدى ارتفاع هذا الجبل، أو بلينوس الكبير ونظرته التقديسية له، أو بصفة مباشر ة لهذا التقديس عند القديس أوغسطين وتأكيد ماكسيم الصوري لذلك.

ومن مظاهر تقديس الجبل لدى لمغاربة القدماء الرسوم الصخرية ذات الدلالات الدينية في عدة مواقع من بلاد المغرب، اضافة إلى الاعتقاد

بالجن الذي يسكن السلاسل الجبلية، وهو ما تعكسه بعض النقوش اللاتينية المهداة إلى الجن التي تسكن هذه الجبال، وكذا مظهر التعبد داخل المغارات بالأماكن العالية وبناء مقابر فجر التاريخ على قمم الجبال.

ومن الطقوس التي دلت على هذا التقديس نجد شعائر تقديم الأضاحي وإقامة المزارات المخصصة لوضع القرابين المختلفة اعتقادا من الانسان أنها هذه الأغوار تمر عبرها الجن، وهي طقوس امتدت حتى إلى جزر الكناري عند الغوانش الذين احتفظوا بالمعتقدات الأصلية للأفارقة القدماء.

وإذا كان تقديس الجبل يعود إلى النيوليتي وفجر التاريخ ببلاد المغرب، باعتباره نقطة التقاء السماء بالأرض، فقد استمر هذا التقديس إلى فترة الاسلام حيث أصبحت الجبال مساكن للأولياء، مثلما لوحظ في فترة المرابطين، وإلى اليوم ظل الاعتقاد في بعض المناطق، مثلما في الهقار عند التوارق بكون الجبال مساكن للجن.

التعليقات والشروح:

1- « أشار هيرودوت إلى أن سكان الجبل يسمون الأطلنتيين نسبة إلى جبل أطلس الذي يصعب رؤية قممه، ولا ندري لماذا يسميهم الأطلانتيين وليس الأطلسيين؟ لأن التسمية الأولى تربطهم بالأطلانتيين أو أطلانتيد، وهي مملكة أسطورية بدورها، كانت تقع في جزيرة بعرض البحر (ربما قرب آسفي أو قرب طنجة) أو مكان ما بموريتانيا الحالية، كانت ذات حضارة راقية. تحدثت عنها الكثير من الكتابات الاغريقية على الخصوص، وحكت عنها أشياء غريبة. تذكر الأساطير الاغريقية أن أطلس ابن يافت والأوقيانية كليميني عبارة عن عملاق ينتمي إلى الجبل

حفيظة لعياضي
Laiadhihafidha@yahoo.fr

ISSN: 1112-7872
E-ISSN: 2600-6162
ص.ص 77 - 97

الأول من الأرباب، وقد حارب هو وإخوته زيوس، وعقابا على هذه المقاومة حوكم بأن يظل يرفع السماء على كتفيه » (أعشي مصطفى، 2009: 66).

2-« القرعة بقاف يدوية مفتوحة، في لغة أرياف السهول العليا هي السبخة أو البحيرة المالحة، وقد ينطق العين حاء في بعض الجهات » (عقون محمد العربي، 2008: 237، هامش).

* المراجع:

-أعشي مصطفى، (2009). **أحاديث هيرودوت عن الليبيين**، ترجمة وتعليق شرح مصطفى أعشي، الرباط: المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية.

-باصي روني، (Basset. René، 2012) . **أبحاث في دين الأمازيغ**، ترجمة وتقديم حمو بوشخار، ط1، الرباط: دفاتر وجهة نظر.

-جوليان شارل أندري، (1969). **تاريخ افريقيا الشمالية**، ج1، تعريب محمد مزالي والبشير بوسلامة، الدار التونسية للنشر.

-هيرودوت: التواريخ، الكتاب الرابع، (1967). **نصوص ليبية**، ترجمة علي فهمي خشيم، طرابلس-ليبيا: دار مكتبة الفكر.

-حارش محمد الهادي، (1992). **التاريخ المغاربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي**، الجزائر.

-كامبس غابريال، (2010). **في أصول بلاد البربر ماسينيسا أو بدايات التاريخ**، ترجمة وتحقيق محمد العربي عقون، الجزائر: منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.

-عقون محمد العربي، (2008). **الاقتصاد والمجتمع في الشمال الافريقي القديم**، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

-شنيتي محمد البشير، (2013). **الجزائر قراءة في جذور التاريخ وشواهد الحضارة**، ، عين مليلة- الجزائر : دار الهدى.

-غانم محمد الصغير، (2005). **الملامح الباكرة للفكر الديني الوثني في شمال افريقيا**، عين مليلة- الجزائر: دار الهدى.

-غزال ستيفان، (2007). **تاريخ شمال افريقيا القديم**، ج6، ترجمة محمد التازي سعود، الرباط : مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية –سلسلة تاريخ المغرب.

-Augustin Saint, **Sermons**, XLV, 7,)1864-1872.(traduit sous la direction de M. Poujoulat et de M. l'abbé Raulx, Paris : Bar-le-Duc.

-Basset Henri, (1921). « les influences puniques chez les Berbères ». **Revue africaine**, Alger : éd. A. Jourdan. Libraire-Editeur, Volume. 62, p. p. 340-374.

-Bénabou Marcel, (1976). **la résistance africaine à la romanisation**, Paris : libraire François Maspéro.

-Camps Gabriel, (2007). **Les Berbères mémoire et identité**, l'Algérie : éd. Barzakh.

-Leglay Marcel,(1966). **Saturne africain. Histoire**, Paris: éd. E. de Boccard.

-Maxime de Tyr, **Dissertation**, VIII, 7, 1802. traduit sur le texte grec par J-J Combes-Dounoux, Tome premier, Paris : éd. Chez Bossange. Masson et Besson, XI.

-Picard Gilbert-Charles, (1954). **les religions de l'Afrique antique**, Paris : librairie Plon.

-Pline l'Ancien, **Histoire naturelle**, V,6, (1848-1850). Paris: édition d'Emil Littré.

-Pompénius Méla, **Description de la terre**, III, 10, (1843). traduit par M. Louis Baudet, Paris : C. L. F. Panckoucke. Editeur.

-Procope, **Edifices**, VI, VII, Paris : libraire de Firmin Didot frères.

-Silius Italicus, **Guerres puniques**, I. (1856). traduction française de M. Nisard, Paris : chez Firmin-Didot et Cie. Libraire Imprimeurs de l'institut de France .

-Solin, **Polyhistor**, XXV, (1847). traduit en français par M. A. Agnant, Paris : C.L. F. Panckoucke.

-Strabon, **Géographie**, XVII, II, 2, (1865). traduction française Amédée Tardieu, Paris : Libraire de L. hachette et Cie.

للإحالة على هذا المقال:

ـ حفيظة لعياضي، (2020)، « **تقديس الجبل في بلاد المغرب القديم** » . **المواقف**، المجلد: 16، العدد: 04، ديسمبر 2020 ، ص. ص77–97.